خطاب

الى المؤلف

بقلم

الاستاذ الكبير الدكتور منصور فهمى استاذ الفلسفة
بكلية الآداب بالجامعة المصرية

عزيزي مصطفى

ربع قرن مضى — وليس بقليل أن ينقضي من حياة المرء ما ينوف عن خمس وعشرين سنة — إذ كنت تلميذاً في المدرسة الفرنساوية ، حين كانت تلك المدرسة في شارع الدواوين ، وحين نزحت من ربوع الريف الذي نشأت فيه، لأصيب قسطاً أوفى في الدراسة الثانوية ، وأذكر أن استاذ اللغة العربية — وكان المرحوم محمد بك دياب — طلب الى تلاميذ الفرقة التي كنت بها أن يكتبوا موضوعا انشائياً عن سكنى الأرياف وسكنى المدن ، وعند هذا السؤال فاضت نفسي بالحنين الى القرية التي نشأت فيها ، والمروج التي درجت عليها ، والعشير الذي رعاني بعطفه ، وفاض على قلمي الناشىء أثر من فيض هذا الحنين ، فكتبت ماشاء الله أن أكتب ، واصفاً الشمس المشرقة على الحقول ، وذاكراً قوما تهز ضحكاتهم

العالية طلق الهواء ، ومتخيلا الأنعام الآمنة السارحة ، ومحدثا عن الفراش يتفقد الزهر البسام ، والنحل يرتشف من كؤوس النبت رحيقه المختوم ، وذكرت غير ذلك مما اتصل بنشأتي وكان له أثره في نفسي الفتية ، وكنت مخلصا حين كتبت ، وكنت شاعراً حين وصفت ، وكأن أثراً من ذلك الأخلاص وشعاعا من تلك الشاعرية نفذ الى قلب استاذي الشيخ فحنّ هو الآخر الى عهوده بالصبا ، وبأيام الريف الذي شب فيه وترعرع ، فجاء مبكراً فى ذات يوم الى المدرسة ودعانى اليه ، ولقينى بأطيب الكلمات هاشاً مستبشراً ، وكأن مامسست به نفسه من عواطف عن الريف وأحاديث الريف ، بعث في شيخوخته الفانية حياة وأملا ونشاطا !

وهكذا قد تتشابه الأمور في مجاري الأقدار ، فلقد كان فيما كتبت عن شئون الريف مبعثا لذكريات حلوة تجدد من أثرها ارتياح لنفسي وسرور ما احوج النفس اليه

***

للأيام أحكامها ، وللظروف شأنها في أمر الانسان ، فتخلق فيه عادات غير التي نشأ عليها ، وتحبب اليه ما كان لايحب ، وتبغض اليه ما كان لا يبغض ، ولعلها حكمة بالغة حين أوصانا السلف الصالح بأن نحب هونا ما ، ونبغض هونا ما

قضت الأيام أن تعيش فى المدينة كما عاش غيرك من قبل ، وأن تهيء لك المدينة مقاصد أخرى ، وتكيف عصبك وذوقك

وعقلك بكثير من شئونها ، وهكذا أصبحت ترى في الأرياف رغم حبك لها عيوبا ، وتلمس فيها عوجا ، وترى مواضع للشفقة لا يعزيك عنها إلا أن تصيح بأصلاح الناقص ، وتقويم المعوج ، وتغيير المكروه ، ومن الحق أن ترفع الصوت عاليا لتنشد الخير للريف وأهله ، وذلك لأن المدينة علمتك أن فى حياتها من الخير ما يصح أن يتجمل به الريف ، وأن الحضارة وسعت من الحسنات ما اذا أضيف منها الى حياة البداوة لكسب الانسان اللذتين وباء بالحسنيين ، وكانا أو أكثرنا مثلك ، طابت له الأرياف فى حياتها ، وأحس بخير المدينة ، فأصبح يتمنى أن لو جادت الحضارة بشيء من محاسنها على الريف ، وجاد الريف بشيء من محاسنه وطيباته على المدينة !

وما هو إلا أن نشعر جميعا بما تشعر ، وننشد ما تنشد ، حتى يتكون من مشاعرنا وأناشيدنا لحن اجتماعي وصوت قاهر يردد الأصلاح للريف ، ولا يلبث الزمن عند هذا الصوت القاهر إلا أن يلبي الدعوة ، ونرى من الريف المعيب جنات ، ونرى في القرية المهملة المنبوذة موطنا تتغذى منه الأنفس مبادىء الجمال !

***

اذا كان ما كتبت لا يؤثر فيمن كتبت لهم من قرائك الذين تحسبهم مسئولين عن اصلاح الريف ، واذا كان قلمك فيما عقه وأجاد فيه ، لا يؤثر في القارىء بحيث يشعر بشعورك في الأمر

ويفكر بفكرك ، فأن فيما كتبت فضيلة كبرى من فضائل القروي المثقف، اذ يتذكر بالخير مسقط رأسه ، ويهيج شوقه الى ميدان طفولته ونشأته فيقول : « ذهبت اقضي فروض الذكرى والوفاء . لقريتي التي غذتني رضيعا ، وتعهدتني صبيا ، وشاهدتني أحبو على أرضها ، وأعبث بمائها ، وأجري في حقولها ، واتعلم مبادىء القراءة والكتابة فيها » ، ثم يردد : « الى الريف ! الى ذلك الحمى الهادىء ، وهذا المعبد الساجي الخاشع ، الى مهبط النفوس الثائرة ، ومسكن القلوب المعناة ، ومجمع الآمال الشاردة . . . . » ، ويقول : « ما أجمل تحية الشمس لأبناء الريف ! وما أجملها حين تطلع من خدرها ، وتتلفت من حولها ، كالحسناء المفتونة بسحر جمالها ، وبسلطان دولتها ، تصحو من نومها ، وتنهض من سريرها ، تتزايل أعضاؤها من فتور النوم ، ويتراخي جسمها ويتهدل من كسل الراحة وسكرة اللين ونعومة الرخاوة ، تظهر على عيونها الدعج الناعسة الفاترة ، والنائمة اليقظة ، والمتبلدة النشطة ، وعلى جفونها الخامدة الساكرة ، وفي نظراتها المتكسرة الحيية »

* **

وجميل بالفتى المصري الناشىء أن يشعر بعصريته ، فيما لبلاده من خصائص . ولبيئته من مميزات ، وفيما لعشرائه من عادات ، ولأيامه من ذكريات ، فيذكر الكتاب كما ذكرت ، ويذكر الريفيات كما ذكرت ، ويذكر الأغاني كما ذكرت ، وفي تلك

الذكريات المتصلة بمصر الصميمة ، وبسنى حياتك الماضية ، معني دقيق للوطنية والقومية ، فاذا كنت أنا اليوم أغتبط كل الاغتباط ، اذ أرى أحد أبنائى النجباء فى التلمذة . يعترف بالجميل للقرية : أمنا المشتركة ويريد لها الاصلاح ، فأنى طالما تألمت حين رأيت فئة من الشبان تناسوا نشأتهم ، وعاشوا لأنفسهم لاهين لاعبين ، ناعمين بما تقدمه لهم الحضارة ، متناسين مصر ، وريف مصر ، وفلاح مصر ، الذين نشأوهم وانتظروا منهم لأنفسهم المعونة !

* **

لست أدري أستظل محتفظا بكل ما جاء في كتابك من آراء ، أو ستغير الأيام فيها ما من شأنه أن يتغير مع الأيام ؟ على أنه ليس بهام في نشأة الفتى خطأ الرأي أو استقامته ، ولكن الهام رغبته في الخير ، واشتعال وجدانه بالواجب ، وتفكيره فيما يدعو الى التفكير ، وانك فيما كتبت تشعر وتفكر ، وما أسعدنا بشبابنا حين يشعر ويفكر ، ولك إذن أخلص دعواتى واعجابي وحبي الصادق .

ديسمبر سنة ١٩٢٨ منصور فهمى

مقدمه

كتبت هذه « الرسالة » أو هذه « الأحاديث » متأثراً بعاملين قويين ملكا عليّ مشاعري ، واستوليا على كل كياني : وهما الرحمة والوفاء ، ،وما أحسب ان فكرة من الفكر استأثرت بنفسي واستبدت بعقلي مثل هذه الفكرة أو هذه العقيدة التي أذيعها فى هذه السطور ممزوجة بلحمي ودمي ، مندمجة في كل سائري وعالمي .

أخذت نفسى بنشدان وجه من وجوه الاصلاح فى مصر لأفتتح به حياتى الجامعية ، فلم أر موضوعا أجدر بالحديث وأولى بالعناية وألصق بذاتيتي من موضوع « الريف المصري »

ولقد خامرتنى هذه الفكرة منذ سنين ، وأخذت فى عقلي وقلبي أدوارها التي يأخذها كل الأحياء ، حتي اذا شعرت بضغطها ونمائها ويفاعتها ، أخرجتها من عالم الباطن الى عالم الظاهر ، أو من عالم النفس الى عالم الوجود !

فكرت فى حال الفلاح المصري كثيراً وفي لون الحياة التى يحياها في عصر النور والعرفان والحرية والحق والجمال ، في عصر

لا أظن أن الأدوار التي مرت بها الانسانية كلها بلغ فيها التنازع على البقاء في الحياة ، ما بلغه فى هذا العصر المتوثب الطامح المسلح بكل صنوف الآلات والقوى

وسط هذا العالم الصاخب المضطرب المتنازع على الحياة الموفورة السامية ، الطامح في نور جديد يرشده الى عالم أرقى والى حقيقة أسمى والى منزلة أقدس . .

فى هذا العصر الطامح المجاهد ، والذي تفتحت فيه العيون التي أغمضها الجهل فرأت نور الوجود كما أراد الله ان يكون ، والذي تحررت فيه العقول — أو كادت تتحرر — من قيود التعصب وأسر العماية ومن سلطان البابوات والملوك وأعداء العقل ، فأمكنها أن أن تشع شعاعها على هذا العالم الذي أراد الله ان نعرفه ليمكننا أن نفهمه ونستمتع بما فيه من نور وحق وجمال ، ولكن أبت السياسة وأبى الدين — استغفر الله — ولكن أبى الساسة وبعض رجال الدين أن نعرف هذا العالم الذي نعيش فيه وان نرى هذا النور الذى خلق من أجلنا ،،،

في هذا العصر الذي كاد يقضى على كل صنوف الاستبداد وألوان الاعتساف وظلم الانسان لأخيه الانسان ، يعيش الفلاح المصري العيشة التي كان يعيشها زميله الفلاح فى حكم الرومان والبطالسة والعرب والمماليك ، كأنه لم يدر بعد ماذا حدث في العالم ، وماذا طرأ على « الانسان » !

شعرت بهذه الحال السيئة الاليمة وبهذه الحياة التي يحياها فلاحنا في القرن العشرين ، فحركني باعث الرحمة والرثاء لحاله ، وأنا منه وهو مني ، وباعث الوفاء لهذا البلد الامين الذي شقي ببعض أبنائه والذي نكب بتلك الادوار والعصور السود التي مرت على حياته ، حتى غدا تاريخه سلسلة متصلة من الجور والبؤس والظلام ، لا تكاد حلقة تنفصم عن حلقة ، وباعث الوفاء لهذا الريف الذي حبوت على أرضه وعشت تحت سمائه وترعرعت بين حقوله ، والذي يعاني من صنوف الاهمال والتغافل ما يعاني ، في الوقت الذي نأخذ منه كل شيء ولا نعطيه أي شيء ، بل نحرمه كل ما نستمتع به نحن من علم ومن حرية ومن رغبات النفس والشعور بالحياة !

يحيا فلاحنا حياة لا ترضاها نفس أبية كريمة تحركها أبسط صنوف الرحمة والوفاء لهذا الفلاح ولهذا البلد ، حياة لا يقبلها رجل يغار على بلده ويعرف معنى الوفاء له ، ويود له النهوض والمكانة التي تليق بسابق مجده وقديم حضارته الأولى ، حياة يتقزز منها كل فرد يقدر لفظة « انسان » وتدفعه الشفقة والرثاء لأخيه « الانسان » !

من الاحتقار « للانسان » أن يعيش الفلاح المصري هذه العيشة النكداء ، ومولاه الغني يلبس الحرير ويتوسد الدمقس بما يقتطع من لحمه ويشرب من دمه ويعيش في ترفه وعزه على كده وبؤسه ، ومع ذلك لا يكلمه الا بالنظرات الشزراء وبالخدود المنتفخة والوجه المتورم من الصلف والتيه والتعسف ، ولا يعامله الا بالسباب

والتعذيب ولا يخاطبه إلا باللطم « و الركل » وحكوماته المتعاقبة المتغيرة عليه والتي تمتص موارد نا ومرتبات موظفيها من عرقه ومن دمه ، لا تكافئه الا بتجاهله واحتقاره ، وإن سخت في الكرم وجادت بالعطاء تكافئه بمعسول الاماني ومكذوب الامل بما تلقي من وعود ، وبما تحبر من كلام ، وبما تزوق من خطب !

من الاحتقار للوطنية المصرية وللنهضة القومية الكبرى ، وللبعث العالمي ، و « للروح الانسانية العامة » ، وللدماء التي أريقت ، والارواح التي زهقت ، والضحايا التي تكدست فى ظلمات القبور ، والاشلاء التي تبعثرت في الاجواء تحت أزيز الرصاص وقذف المدافع ، وللنساء التي أيمت والاطفال الذين يتموا ، وللبيوت التي خربت وللعائلات التي نكبت فى ابنائها وفلذات أكبادها ، من الاحتقار لصيحة الحق وقومة العدالة وهبة الحرية ، أن نستمتع ببعض ما بذلنا في سبيله من مهج وأرواح ، ثم يبقى الفلاح المصري فى حقله وفي أركان داره المتهدمة المظلمة القذرة بين مواشيه وحميره لا يفرق كثيراً بين الجور والعدل ، ولا بين الحق والباطل ، بل ولا بين الحرية والعبودية !

مضى الزمن الذي كان فيه الانسان يصبر على الضيم ويخنع للذل ويقبل مكرها يد جزاره وذابحه ، وبادت تلك الاعصر التي كانت فيها الانسانية مقسمة الى قسمين أو صنفين من الخلق :

انسان وشبه انسان ، للاول الغنم والترف والعز والسلطان ، وعلى الثانى الغرم والذل والشقاء والهوان !

لم يرد خالق الانسان حين خلقه وسواه الا أن يكون هذا « الانسان » مالك نفسه وسيد أمره ، له مم في هذا العالم من نور ومن حرية ومن علم ومن جمال نصيب موفور يليق بوجوده السامي وخلقه العالي ، فما بال الانسان نفسه يجعل من نفسه آلها أو شيطانا يعبث بالخلق ويقسم الناس الى رءوس وأذناب والى أسياد وعبيد ، فى عصر امحت فيه كلمة « العبد » وعلت كلمة « الانسان » ؟؟

ولهذا فليست هذه الرسالة الا صيحة الحق وصرخة العدالة اضمنها هذه السطور التي تكاد تحترق من لهيب الاسى ، واني لو بدلت عيونا لثفت ولترجمت عن حرقة الشقاوة وذلة الدموع وجراحات الالم ، صيحة من صميم القلب وصرخة من اللحم والدم ، يبعثها شاب أمضه الالم ولاعه الاسى اشفاقا على هذا الصنف من من الانسان الذي له اسمه وليس له مسماه ، وله لفظه وليس له معناه !

وانى لم أحرص على نشر هذه الرسالة أو هذه الاحاديث الا لأنى أحب أن أورخ بها حياتى الجامعية وان افتتح هذه الحياة التي أرجو أن تكون مباركة خصبة بنشدان وجه من وجوه الاصلاح والاحياء المصري والبعث القومي ، وأن يتوج هذا الانتتاح بأشرف وأنبل مافي الانسان : الرحمة والعدالة !

وأحب أن يلاحظ حضرات القراء الكرام اني حين فكرت

في كتابة ثم نشر هذه الرسالة الصغيرة لم أبغ بها إلا أن أصل الفلاح المصري بالبيئة المدنية المصرية لانها تجهله كل الجهل ، ولذلك لا تقدر بؤسه ولا تفهم لغة آلامه ، وملاحظة ثانية أيضاً هي الا يعطوا هذه السطور صبغة أكثر من انها «أحاديث» ، إذ لست أنحل لها صفة « كتاب » ولست أدعي لها صفة «التحقيق العلمى» ، وانما ملاحظات رأيتها وخواطر لعبت برأسي وآلام شعرت بها ونداء باطنى هتف بى ، فسطرتها على الورق كما هى لتكون صورة من شعوري الأول وصدى لنفسي المضطربة الجياشة بكل ألوان الشعور وصنوف الاحساس !

وملاحظة ثالثة : هى انى حين أردت أن أكتب عن الفلاح المصري وعن ريفنا لم أختر إلا صنفا واحداً من الفلاح هو الغالبية العظمى في كائننا القومي ، وهو الفلاح الذي لا يملك شيئاً بل يعيش اما مأجوراً أو مستأجراً ، فان خلت هذه السطور من التعرض لصنوف الفلاح الاخرى فذلك لانى لم أشأ أن أمسها بالتصوير أو أتعرض لها بحديث

واني لسعيد جد سعيد بين اطواء نفسي وأمام محكمة ضميري كلما فكرت انى بذلت كل جهدي لأكون أميناً فى تصوير ريفنا المصري وحياة فلاحنا ، صادقا في التعبير عن شكواه وآلامه

ولست أنكر ان هذه الاحاديث قد ينقصها « وحدة الفكرة » أو تزاوج المعاني واتساقها اتساقا منطقيا منظما ، وتعليل هذا اني

أحببت أن أصور مختلف مشاعري وما يقع عليه بصري وما تجيش به نفسي وما يستغرق فيه عقلي وتأملاتي حين شعوري واحساسي وأنا في ريفنا وبداوته وبين فلاحنا وسذاجته دون أن أراعي في ذلك « الوحدة الفكرية » أو « الصبغة الفنية » ، ولذلك نحلت هذه السطور المبثوثة في هذه الاوراق صفة « أحاديث » لتدل على نفسي وعلى شعوري وعلى قصدي حين كنت أكتب ، وحين كنت أشعر ، وحين كنت أفكر

***

هذا نصيبي الآن من الاصلاح المصري وواجبي من الاحياء القومي أقدمه خير ما أكون مغتبطا وراضياً ، لأنه مظهر للفكرة « الانسانية » التي أحبها واحترمها ، وأعمل على هداها ونهجها ، وأعيش في سبيل تحقيقها ونجحها ، ولانه جانب من « نفسي » وعصارة من دمي ، وشطر من وجودي ، ولأني أشعر بأني أرضيت به ضميري ، ووثقت فيه بنفسي ، حين قمت ببعض وواجبي ، واضطلعت بجزء من مسئوليتي ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها !

سبتمبر سنة ١٩٢٧ — مصطفى الهلباوي